

سلطان بناء الشخصية في روايتي أحلام مستغانمي (ذاكرة الجسد وفوضى الحواس)

أ. حرز الله شهرزاد
كلية الاداب واللغات
المركز الجامعي بغيليزان

ارتقت روايات أحلام مستغانمي لمصاف الإبداع، وعدت تجربتها في كتابة الرواية من التجارب الناضجة والجديدة التي نالت حضورا بارزا على مستوى الوعي الفني المتخصص والجمهور المتذوق. أضف إلى ذلك إلى أن هذه الكاتبة تعتبر نقلة نوعية في عالم الرواية العربية الجديدة عامة، وعالم الرواية الجزائرية خاصة، كما أن هذه الكتابة هي حدث أدبي لكونه أول عمل روائي نسائي يصدر باللغة العربية في الجزائر، وأول مغامرة للسفر في ذاكرة رجل للإقامة في عالمه الحميمي، ومقاسمته عمرا من النضال والخيبات والتناقضات الذاتية¹، في ذاكرة الجسد لتبدع لنا بعدها نصا آخر (فوضى الحواس) كتكملة للأحداث الرواية الأولى، وكواقع مواز للواقع الراهن من خلال قصة رومانسية تتصادم في داخلها مع الثالوث المحرم.

إن الوقوف عند هذا الفن المتميز هو عنصر مهم من عناصر تقنيات هذه الكتابة وهذا الفن الجديد بشكل عام، الذي لم يتفق النقاد بعد عن جنسه بتسمية محددة، كون أن الأدبية قد اخترقت فيه الرواية لتعانق الشعر والقصة والسيرة هذا بالإضافة إلى تحطيم الكاتبة لكل ما هو متداول لأن الإبداع لا يتدفق إلا من عمق التجربة النفسية والثقافية، لذلك اعتبر روب غرييه الرواية الجديدة بحثا واكتشافا. وما زالت الكتابة العربية لحد الآن تبحث عن أشكال جديدة للكتابة في تقنياتها، باعتبار أن الإبداع هو اكتشاف مستمر لما لم يتحقق بعد.

ونريد أن تشير إلى أن أحلام مستغانمي تنتمي إلى تلك الزمرة من الأدباء المجددين، حيث صدرت لها رواية (ذاكرة الجسد) الرواية الأولى عام 1993 وقد خطبت منذ صدورهما باهتمام بالغ وإعجاب فائق ويكفي أنها طبعت أكثر من ست عشرة طبعة في فترة زمنية

1 كلام الناشر على ظهر رواية (ذاكرة الجسد)

أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، ط 1، 1993 م.

وجيزة إلى جانب روايتها الثانية (فوضى الحواس) عام 1998. ورواية "عابر سرير" التي صدرت مؤخرا.

تتحدث رواية (ذاكرة الجسد) عن رسام هاجر إلى فرنسا بعد أن بترت ذراعه خلال كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي، وفي أحد المعارض الفنية التي أقامها بباريس يجتمع صدفة بابتة قائده (سي الطاهر) بعد خمس وعشرين سنة يوم كانت طفلة تحبو، وسيكون ذلك بداية الحب بينهما، لكن الرواية تأخذ منحى مأساويا عندما تتزوج حياة من رجل سلطة من أصحاب الصفقات المشبوهة، وسيكون زفافها داعيا لزيارة خالد إلى قسنطينة، كما يكون موت أخيه حسان فيما بعد دافعا له للإقامة فيها نهائيا، أما الجزء الثاني من الرواية (فوضى الحواس) فإن حياة هي التي ترويها بعد زواجها من العسكري في قسنطينة، تتحدث الرواية عن قصة حب قصيرة جمعت بين حبيبين اتفقا على مشاهدة فيلم بقسنطينة، وهنا تقرر الكاتبة الذهاب للسينما محل البطلة، ويغادر الرجل دفاترها إلى عالم الحياة ويصل الحب مع هذا الرجل لحد خيانة زوجها العسكري، ويتقدم الرد نكتشف مع البطلة أن الرجل المحبوب ليس هو الذي التقت به في السينما وإنما صديقه عبد الحق الذي تتعرف عليه متأخرا عندما تعلن الجرائد عن اغتياله.

بناء الشخصية:

تنأسس الشخصية في روايات الكاتبة «أحلام مستغانمي» من مزيج يجمع الواقع بالخيال، وبفعل هذه المرجعية تتشكل لنا صورة تخيلية عن هذا الإنسان الذي لا تعدو حقيقته أن تكون نصية، حيث أنها في النهاية ليست إلا حصيلة لهذا التواشج بين البشري واللغوي فهي ترتبط بالماضي لأنها تهتم بتجسيد أورصد حقبة تاريخية¹.

ويظهر هذا بشكل واضح في روايتي أحلام مستغانمي التي جاءت الأحداث فيهما لخدمة الشخصية وإبرازها. أما في «فوضى الحواس» فالأحداث فيها قائمة على الصدفة التي عبرت عن إحساس الكاتبة بالحياة وباهتمامها بعالم الشخصية الداخلي رغم الإيهام والغرابة واللامنطق. فالروايتان في الأخير نكتسيان بعدهما الإنساني من خلال إبرازهما لمشكلات الشخصيات ومعاناتها.

1 Alain Robbe- Grillet, *Pour un nouveau roman*, Paris:éditions de minuit, 1986, p.28.

الحدث والشخصية:

إن ترتيب الأحداث عموماً عند الكاتبة هو ترتيب غير متسلسل، بل ترتيبها يعني بإبراز الشخصية، وتزويد القارئ بمعلومات عنها. وفي هذا النوع من الرواية يحس القارئ بامتلاء المكان امتلاءً مبالغاً¹. وهذا المضمون هو سمة من سمات الرواية الجديدة التي تأخذ الطابع الفكري التأملي بغض النظر عن نوع هذه الأحداث سواء كانت اجتماعية، سياسية، اقتصادية، بل تتعدى ذلك لتأخذ طابع الجدل والتناظر مع الواقع وتعكس اختلافاً بينهما، وبين طابع التسجيل والتسلسل المنطقي القائم في الرواية التقليدية.

وعليه فإن هذا النمط من الكتابة غير خاضع لنمطية معروفة، على نحو الرواية التي تقوم بترتيب الحدث لتصل إلى وسط ثم تنتهي إلى نتيجة، كما أنها غير مرتبة بحبكة متماسكة بحيث يؤدي التقديم أو التأخير فيها إلى فك الحكاية. فإذا كان الأمر كذلك فأين يتركز وسط الحكاية وأين يحدث التأزم وأين هي العقدة بمصطلح الرواية التقليدية؟ عندما نتعمق في النص نجد أن الأزمة أو الإشكالية هي فكرية نفسية بالدرجة الأولى تمثلها الشخصيات وهي تتأزم أمامنا وتعاني وفي هذا الإطار يقول عمار زعموش "ولأن الرواية الجديدة تطبعها خاصية فقدان الأمل في إمكانية التصالح مع الواقع، فإن هذه الكاتبة أحلام مستغانمي تتطلق من هذا المبدأ الذي يجعل شخصياتها تعاني أكثر مما تبني "رؤية مستقبلية". .. ويصير مضمون الرواية تعبيراً عن أزمة فكرية أكثر منها اجتماعية².

إذن فالإشكالية نحس بها في النص الروائي منذ البداية تتموضع الأحداث ويتأزم البطل كلما تقدم الرد ليصل إلى نتيجة غير متوقعة. فأزمة النص تتجلى على مستوى الشخصيات، في حين أن العقدة التي كانت سمة الرواية التقليدية تتشكل في ذهن القارئ في نص أحلام مستغانمي بفعل كل تلك القضايا والتأملات والإشكاليات المطروحة (الوطن - الحب - الحرية - الخيبات العربية - الموت والحياة...) على مستوى الحدث والشخصية والنص ليشارك القارئ الشخصيات معاناتها الفكرية وتأزمها النفسي ومن ثمة فإن تأزم الشخصية النفسي وهو الذي يقود الحدث في فوضى الحواس وليس العكس.

1 فريال سماحة، رسم الشخصية في روايات حنا مينا، دمشق: دار كنعان للدراسات، ط1، 1994، ص21.

2 عمار زعموش، الخطاب الروائي في ذاكرة الجسد، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والإعلام، العدد 114، ص48.

الحالة النفسية ← الحدث ← النتيجة

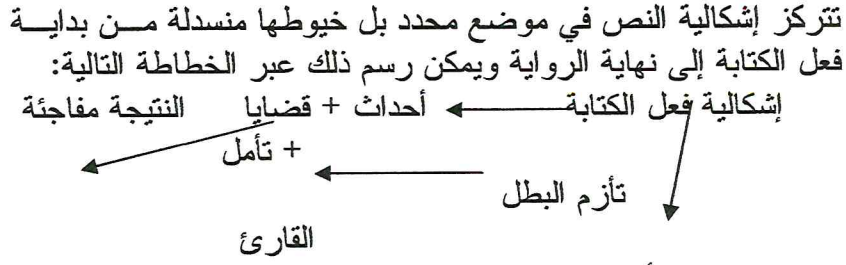
ذهبت إلى السينما لأنها كانت تريد أن تكتب قصة حب وقررت بعدها أن تعيشها شخصيا.	حدث اللقاء في السينما، في المقهى، في الشقة، ولم تذهب البطلة إلى المقهى إلا لأن حالتها النفسية كانت تدفعها لمعرفة ذلك الرجل وحدها كان يقول لها أنها ستراه.	الفراق بسبب وهم الحب وموت الحبيب.
--	--	--

بينما الأمر يختلف نوعا ما، في (ذاكرة، الجسد)، فبسبب الأحداث التي جرت بكى خالد حياة كما بكى الوطن، حيث أراد قتلها في رواية.

الأحداث ← الحالة النفسية ← النتيجة

حدث لقاء حياة بخالد وفي المعرض وزيارتها له في شقيقته، تعرفها على زياد، انقطاع العلاقة بين خالد وحياة، ثم دعوة سي الشريف للبطل خالد لحضور زفاف حياة من الضابط العسكري.	انتشى حيث رجعت إليه الذاكرة من جديد، أحب حياة وتوثقت العلاقة نوعا ما مدة شهور بدأ يشك في علاقة ما بين حياة وزياد، أصيب بنكسة عند سماعه لخبر زواجها فراح يبكي البطلة والوطن معا.	زواج البطلة حياة من رجل غير خالد وحضور هذا الأخير لحفل زفافها بقلب مكابر يبكي الوطن.
---	--	---

وهكذا يتوسع التأزم وتكبر الإشكالية عند القارئ كلما تقدم السرد، فيتأزم البطل أكثر فأكثر، وأحيانا يتسم الحدث بسمّة التوتر، ولا



ولا تهتم أحلام مستغانمي بكثرة الشخصيات في رواياتها، بل اهتمامها منصب على نوع هذه الشخصيات ودورها في تحقيق رسالة النص.

والملاحظ أن العالم الخارجي كان يستعرض من خلال كشف هذه الشخصيات عن عالمها الداخلي في مواقفه، وأفكاره، وأبعاده، وأحداثه عن طريق الاستنكار وتيار الوعي أو التداعي الحر إلى جانب المونولوج.

وتقوم الشخصية في روايتي أحلام مستغانمي على الأساس السيكولوجي الذي تتخذ من الحياة الداخلية موضوعاً لها، تصادف الشخصيات بكامل أبعادها النفسية، بينما في الروايات الأخرى التي تهتم بجوانب الحياة العامة، تكون معروضة في حسيّتها ومباشرتها، وبأقل ما يمكن من التعقيد السيكولوجي¹.

وبالتالي فإن هذا الكشف النفسي قد ساهم في بناء الشخصية داخليا وخارجيا، وهذا بدوره عنصر من العناصر الحداثيّة في الرواية العربية الجديدة والقارئ مطالب في روايتي أحلام مستغانمي أن يجمع شمل العناصر المتعلقة بالشخصية ومساءلتها وإعادة تركيبها ضمن حركة النص الكلية، لأن الشخصية في روايات مستغانمي تبقى مجهولة كما ظهر ذلك في عودة خالد النهائية إلى قسنطينة التي لا نعرف عن مصيره فيها، وعودته عموماً تشير إلى الوطن الآتي/ المستقبلي الذي يدل عليه فعل العودة نفسه، من حيث التعبير عن تاريخ آخر مختلف عن الذي مضى، ومن هنا تغادر الشخصية أرض الغربة والوحدة إلى زمن الاستقرار والأمن والذاكرة، بالرغم من أن الحاضر، أو الزمن الواقعي ينذر بالقلق والغربة معاً. كما ظلت شخصية الرجل في فوضى الحواس غامضة - مسكوت عن ماضيه وأسرته إلى نهاية الرواية. فبناء الشخصية وحركيتها داخل النص الروائي يعبر عن حركة وتأزم دائمين، وسلوك مفاجئ لا يخلو من مغامرة وتشويش، حتى

1 حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، 1995، ص 302.

يبدو للقارئ الساذج بأن الرواية متناقضة في بعض مواقفها، مثل اختفاء عبد الحق في فوضى الحواس طيلة مدة تعارف البطلة بالرجل، وكيف تعتقد علاقة رجل لا تعرف اسمه، وكيف يعقل ألا يتعرف عليها عبد الحق. وبهذا تكون مستغامي قد أفقدت طابع الشخصية الهادئ المنسجم، وذوبت نمطها السلوكي إلى بطلنة تتسجم حركتها ومتطلبات المرحلة الزمنية الجديدة، التي تريد الكاتبة عبرها إثبات فعاليتها: نفسية - اجتماعية - أيديولوجية على الفضاءات الدلالية العامة للنص. كما يظهر ولعها بقصص الحب الثلاثية الأطراف، حيث تجد في قصص الحب الثنائية بين شخصين الكثير من السذاجة والبساطة، لذلك لا بد في رأيها من رجل ثالث يعيش بمحاذاة القصة (خالد) (حياة) (زياد) لأن منطق الحب في الحياة يجعلنا نخطئ دائماً برقم (البطل - البطلة - عبد الحق) وفي الحقيقة يعود هذا التصور للفيلسوف الفرنسي روني جيرار الذي يرى أن الكذب الرومانسي يقتضي ذاتاً وموضوعاً في حين أن «الحقيقة الروائية» تقوم على مثلث الرغبة الذي يفترض وسيطاً يعطي للعلاقات بعد التنافس¹.

كما اعتمدت أحلام مستغامي على الطريقة التمثيلية في تقديم شخصياتها أي على ضمير المتكلم، وهي طريقة مباشرة - وبها قدم خالد نفسه في (ذاكرة الجسد) كما عرفنا بشخصيات أخرى من بينها شخصية سي الطاهر - سي الشريف وكاترين بالإضافة إلى (أما الزهرة) وأخيه حسان وزوجته عتيقة، فكان الراوي من بداية الرواية إلى نهايتها مشاركاً أما في فوضى الحواس فقد استعانت في البداية براومحايد لا علاقة له بالقصة يتكلف بتقديم الشخصيتين، لكن سرعان ما تدخلت الكاتبة، لتتحد بالبطلة وليس المهم في الرواية، أية رواية، غزارة المعلومات عن الشخصية، بل المهم كفايتها لتلبية حاجة الشخصية إلى إبراز تجربتها² وإلى جانب ذلك لجأت أحلام لمبدأ التدرج والتحول، والتدرج يعني الانتقال من العام إلى الخاص، أي أن الشخصية تبدو عامة رغم دقة التفاصيل في البداية ثم تتضح رويداً رويداً، كما زادت المعلومات المقدمة عنها وعن علاقتها بالشخصيات الأخرى، كما أوهمتنا الكاتبة في فوضى الحواس في البداية بأن الرجل هو امتداد للبطل خالد (في ذاكرة الجسد) فيه شيء من ذكره وشخصيته

1 رشيد الإدريسي، روايتا أحلام مستغامي لذة التفاصيل المستترة، الآداب، العدد 9، ص 52.

2 سمر روجي الفيصل، بناء الرواية العربية السورية، 1980-1990، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ط 1، 1996، ص 98.

وعمقه، بل اشترك معه حتى في عاهته الجسدية، ويزداد الأمر التباسا عندما يستخدم هذا الرجل في فوضى الحواس اسم (خالد بن طوبال) في توقيعه لمقالاته، وبذلك تكون الكاتبة قد جمعت بين شخصيتين رئيسيتين، وأشركتهما في اسم واحد، الأول حقيقي في ذاكرة الجسد، والثاني مستعار في فوضى الحواس، هذا بالإضافة إلى تلك العاهة الجسدية (الإصابة في الذراع اليسرى) رغم أن الشخصيتين مختلفتان تماما.

فإذا كانت شخصية الرجل في فوضى الحواس تمثل وسيطا تخيليا في البداية باعتباره ليس الرجل المقصود بالحب، إلا أنه في الحقيقة هو الموضوع الذي تعلق به "ذات" البطلة من بداية الرواية إلى نهايتها... وبالتالي تكون شخصية "عبد الحق" الصحفي هي التي تمثل الوسيط التخيلي في الرواية. كما تساهم الشخصية عندها في تشكيل الفعل بتقديم الأحداث لدرجة التمرد على الكاتبة أحيانا، لأنها تعطي للشخصية حرية لمتعة الكتابة حتى وإن كانت الكاتبة قد رسمت مخططا، إلا أن أفعالها كثيرا ما تخرج عن المنطق تقول أحلام "إن شهوة الكتابة ولعبتها تغريك بأن تعيش الأشياء لا لمتعتها وإنما لمتعة كتابتها، وهكذا بعد شيء من التفكير توصلت إلى كون ما حدث لي لا علاقة له بالمنطق وإنما بتصادف عدة شروط لا منطقية"¹.

وتتحرك الشخصيات الرئيسية في الرواية اعتمادا على أفكار تعود إلى شخصيات أدبية وتاريخية معروفة، «في النهاية... لم يكن لي شيء أحتمي به في ذلك الصباح سوى مقولة الشاعر الإيرلندي شيماس هيني «إمش في الهواء.. .. مخالفا لما تعتقده صحيحا؟ وهكذا رحلت أمشي نحو قدرتي، عكس المنطق»²

هذا إلى جانب شخصيات أدبية أخرى سطت على الشخصية في الرواية كشخصية زوربا - وبطل فيلم السينما- وكسطورة كاموفي ذاكرة الجسد وفوضى الحواس صاحب رواية "الغريب" إلى جانب شخصية الروائي اليوناني نيكوس كازانتساكيس، وتغدومثل هذه الشخصيات المخترعة المتخيلة أوبالأحرى المركبة التي تجمع الواقع بالخيال، وكأنها عاشت معنا لا تكاد تبرح الذهن حتى في غيابها. وتظهر براعة الكاتبة في تحقيقها لذلك التوحد الزمني الذي ربطت به بين ماضي الشخصية وحاضرها، فكان من المؤشرات

1 أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، بيروت: دار الآداب، ط6، 1998، ص 308.

2 نفس الرجوع، ص 64.

الأساسية على إبداعها، كما أن النص الروائي احتوى شخصيات بطلية وأخرى رئيسية، وشخصيات ثانوية وكذلك لشخصيات طيفية - ان صح التعبير - مستحضرة مثل شخصية (الأم الزهرة) و(سي الطاهر) التي هي عبارة عن شخصيات فاعلة مستحضرة.